تمهيد:

إن هذا الكائن الفريد الذي اسمه الإنسان كان دائما ولا يزال موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء، فمنذ قديم الزمان لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري وإهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية ولون البشرة والعادات والتقاليد والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة، وفي إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة اصطلح على تسميته الأنثروبولوجيا(Anthropology) (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ١٣).

والأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا، إنها المعرفة المنظمة عن الإنسان، هو الدراسة العلمية للإنسان في كل زمان ومكان، ولا يتقيد بفترات الزمن أو بحواجز المكان، ولكنه يتقيد ببحث موضوع واحد لا يخرج عنه وهو الإنسان.

وعليه يجمع الباحثون في علم الأنثربولوجيا على أنه علم حديث العهد، إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والفلك...وغيرها. إلا أنّ البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان، مذ وعى ذاته وبدأ يسعى للتفاعل الايجابي مع بيئته الطبيعية والاجتماعية.

لقد درج العلماء والفلاسفة في كل مكان وزمان عبر التاريخ الإنساني، على وضع نظريات عن طبيعة المجتمعات البشرية، وما يدخل في نسيجها وأبنيتها من دين أو سلالة، ومن ثم تقسيم كل مجتمع إلى طبقات بحسب عاداتها ومشاعرها ومصالحها (عيسى الشماس: ٢٠٠٤، ص.٩).

وقد أسهمت الرحلات التجارية والاكتشافية، وأيضا الحروب، بدور هام في حدوث الاتصالات المختلفة بين الشعوب والمجتمعات البشرية، حيث قربت فيما بينها وأتاحت معرفة كل منها بالآخر، ولا سيما ما يتعلق باللغة والتقاليد والقيم...ولذلك، فمن الصعوبة بمكان، تحديد تاريخ معين لبداية الأنثروبولوجيا.

١. نشأة وتطور الأنثربولوجيا

من خلال هذا المبحث سيتم التطرق لأهم المراحل التاريخية التي مرت بها الأنثروبولوجيا في نشأتها، وذلك بداية من العصور القديمة عند الإغريق والرومان والصينين القدماء مرورا بالعصور الوسطى بتسليط الضوء بمراحل نشأة الأنثروبولوجيا عند الأروبيين والعرب، وصولا إلى عصر النهضة الأوربية أين أتسع مفهوم ومضمون الأنثروبولوجيا في معناه الحقيقي.

١.١ نشأة الأنثربولوجيا في العصر القديم

يجمع معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، على أن الرحلة التي قام بها المصريون القدماء في عام (١٤٩٣) قبل الميلاد إلى بلاد بونت (الصومال حاليا) بهدف التبادل التاريجي، تعدّ من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب. وقد كانت الرحلة مؤلفة من خمسة مراكب، على متن كلّ منها ٣١ راكباً، وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شملت البخور والعطور. ونتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام إفريقيا. وتأكيدا لاقامة علاقاتهم معهم فيما بعد، فقد صورت النقوش في معبد الدير البحري، استقبال ملك وملكة بلاد/ بونت/ لمبعوث مصري (عيسى الشماس:٢٠٠٤، ص. ١٩).

١.١.١ عند الإغريق (اليونان القدماء)

يعدّ المؤرخ الإغريقي (اليوناني) هيرودوتس (Herodotus)، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان رحالة محبّاً للأسفار، أول من صوّر أحلام الشعوب وعاداتهم وطرح فكرة وجود تنوع وفوارق فيما بينها، من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية. ولذلك يعتبره معظم مؤرخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأول في التاريخ.

فهو أو من قام بجمع معلومات وصفيّة دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوربية (حوالي خمسين شعباً)، حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم، وملامحهم الجسميّة وأصولهم السلالية. إضافة إلى أنه قدم وصفا دقيقا لمصر وأحوالها وشعبها، وهو قائل العبارة الشهيرة "**مصر هبة النيل**".

ومما يقوله في عادات المصريين القدماء: إنّه في غير المصريين، يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أما في مصر فيحلقونها. ويقضي العرف عند سائر الشعوب، بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم في أثناء الحداد، ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت، فانهم يطلقون شعر الرأس واللحية (خفاجة محمد صقر: ١٩٦٦، ص. ١٢٠).

وأما عن المقارنة بين العادات الإغريقية والليبية، فيقول: يبدو أنّ ثوب أثينا ودرعها وتماثيلها، نقلها الإغريق عن النساء الليبيات.غير أن لباس الليبيات جلدي، وأن عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان.

وأما ما عدا ذلك، فإن الثوب والدرع في الحالتين سواء... ومن الليبيين تعلم الإغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة (خشيم علي فهمي: ١٩٦٧، ص. ٨٧).

واستناداً إلى هذه الإسهامات المبكرة والجادة، يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا، أن منهج "هيرودوتس" في وصف ثقافات الشعوب وحياتهم وبعض نظمهم الاجتماعية، ينطوي على بعض أساسيات المنهج (الإثنوغرافي) المتعارف عليه في العصر الحاضر باسم (علم الشعوب).

بالاضافة إلى هذا فهناك من يقول أن أرسطو كان من الأوائل الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطوري للكائنات الحية، وذلك من خلال ملاحظاته وتأملاته (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ٣٠).في التركيبات البيولوجية وتطورها في الحياة.كما ينسب إليه أيضاً، توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضله، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والانسانية.

إنّ الدارس لأعمال الفلاسفة اليونانيين يصل إلى معلومة طريفة وذات صلة بالفكر الانثروبولوجي، وهي: أن اليونانيين أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة، وتمخض عنها ما يعرف باسم "الحضارة الهيليلنية" تلك الحضارة التي سادت وازدهرت في القرون الثلاثة السابقة للميلاد (فهيم حسين: ١٩٨٦، ص. ٤٦).

٢.١.١ عند الرومان

امتد عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها..ولكنّهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية (المجرّدة للحياة الإنسانية)، بل وجّهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس.ومع ذلك لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره كإسهامات أصيلة في نشأة علم مستقلّ لدراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ٣١).

ولكن يمكن أن يستثني من ذلك، أشعار "كاروس لوكرتيوس" التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة.فقد تناول موضوعات عدّة عرضها في ستة أبواب رئيسة، ضمنّها أفكاره ونظرياته عن المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها، وتكوين العالم...وخصّص الباب السادس لعرض فكرتي: التطور والتقدم، حيث تحدّث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ٣١).

وقد رأى بعض الأنثروبولوجيين، أن "لوكرتيوس" استطاع أن يتصور مسار البشرية في عصور حجرية ثمّ برونزية، ثمّ حديدية...بينما رأى بعضهم الآخر في فكر "لوكرتيوس"، تطابقا مع فكر" لويس مرغان" (Morgane. L) وهو أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر.وذلك من حيث رؤية التقدّم والانتقال من مرحلة إلى أخرى، في إطار حدوث طفرات مادية، وإن كان مردّها في النهاية إلى عمليات وابتكارات عقلية (Darnell,Regna and editor : 1978, p.15).

وإذا استثنينا أشعار "لوكرتيوس" هذه وما احتوتها من أفكار تتعلّق بطبيعة الكون ونشأة الإنسان وتطوّره، فإنّه من الصعوبة بمكان أن تنسب نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى الفكر الروماني القديم، كما هي الحال عند الإغريقيين.وعلى الرغم

من أنّ، الرومان اهتمو بالواقع، من حيث ربط السلالات البشرية بإمكانية التقدم الاجتماعي والحركة الحضارية، فقد وجدوا في أنفسهم امتيازاً وأفضلية على الشعوب الأخرى.

فكان الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى أنّ الرومان إذا أرادو أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قراراً بمنح الجنسية الرومانية لأي منهما ويبدو أن هذا الاتجاه العنصري، وجد في معظم الحضارات القديمة، ولا سيما الحضارات الشرقية: الإغريقية والرومانية والصينية (مؤنس محمد: ١٩٧٨، ص. ٤٣).

٣.١.١ عند الصينيون القدماء

يعتقد بعض المؤرّخين، ولا سيما الأنثروبولوجيون منهم، أنّه على الرغم من اهتمام الصينيين القدماء بالحضارة الرومانية وتقديرها، فلم يجدوا ما ينافس حضارتهم.

كان الصينيون القدماء يشعرون بالأمن والهدوء داخل حدود بلادهم، وكانوا مكتفين ذاتياً من الناحية الاقتصادية المعاشية، حتى أن تجارتهم الخارجية انحصرت فقط في تبادل السلع والمنافع، من دون أن يكون لها تاثيرات ثقافية عميقة.فلم يعبأ الصينيون في القديم بالثقافات الأخرى خارج حدودهم، ومع ذلك لم يخلُ تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية، والتي كانت تتّسم بالازدراء والاحتقار (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص .٣٣).

وهذا الاتجاه نابع من نظرة الصينيين القدماء للعنصرية، إذ كانوا يعتقدون- كالرومان- أنهم أفضل الخلق، وأنّه لا وجود لأية حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، بل كانوا يرون أنّهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء... ولكي يؤكّد ملوكهم هذا الواقع، أقاموا "سور الصين العظيم" حتى لا تدنّس أرضهم بأقدام الآخرين. ولذلك اهتمّ فلاسفة الصين القدماء، بالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية، من خلال الاتجاهات الواقعية/ العملية في دراسة أمور الحياة الإنسانية ومعالجتها، لأنّ معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي، في أي مجتمع، تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، والذي يكشف بالتالي عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة،

ويحدّد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى، وهذا ما يفيد الباحثين في العلوم الأخرى، ولا سيّما تلك التي تعنى بالإنسان (مؤنس محمد: ١٩٧٨، ص. ١٥).

٢.١ الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى

يجمع معظم المؤرخين أن هذه العصور، تمتدّ من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي.وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأروبية وارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، ولأنها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأروبية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوربية (عصر التنوير) والانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم، وإبداعات في الفنون والآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص ص. ٣٣-٣٤).

١.٢.١ العصور الوسطى في أروبا

يذكر المؤرخون أنه في هذه العصور الوسطى (المظلمة) تدهور التفكير العقلاني، وأدينت أيّة أفكار تخالف التعاليم المسيحيّة، أو ما تقدّمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الإنسانية، سواء في منشئها أو في مآلها.ولكن إلى جانب ذلك، كانت مراكز أخرى وجهت منطلقات المعرفة، وحدّدت طبيعة الحضارة الغربية في تلك العصور، كبلاط الملوك مثلا، الذي كان يضمّ في العادة، فئات من المثقفين كرجال الإدارة والسياسة والشعراء(سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ٣٤).

يضاف إلى ذلك التوسّع في دراسة القانون (جامعة بولونيا) ودراسة الفلسفة واللاهوت (جامعة باريس) مما كانت له آثار واضحة في الحياة الأوروبية العامة (السياسة والاجتماعية والثقافية والدينية) ومهد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور.

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلاّ أنّها اتّسمت غالبا بالوصف التخيّلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع.مثال ذلك، ما قام به الأسقف "إسيدور (Isidore) الذي عاش ما بين (٥٦٠-٦٣٦) حيث أعدّ

في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتّسم بالسطحية والتحيّز.ومما ذكره، أنّ قرب الشعوب من أروبا أو بعدها عنها، يحدد درجة تقدمها.

فكلما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكّدا لتلك الشعوب.ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنهم من سلالات غريبة الخلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف.وقد ظلت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدها الفرنسي "باتولو ماكوس(Batholo Macus)" والتي حظيت بشعبية كبيرة، على الرغم من أنها لم تختلف كثيرا عن سابقتها في الاعتماد على الخيال (فهيم حسين:١٩٨٦، ص ص. ٥٠-٥٢).

٢.٢.١ العصور الوسطى عند العرب

وتمتدّ من منتصف القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً.حيث بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية أنذاك بالتكوين والازدهار.وقد تضمّنت هذه الحضارة:الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية.

وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضروات التنظيم والحكم(سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص .٣٥).

ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم (البلدان) لياقوت الحموي.وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل "مسالك الأمصار" لابن فضل الله العمري"، ونهاية الأرب في فنون العرب للنويري.

وإلى جانب هتمّام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران، فقد تميّزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصيّة، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المهنج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية (سيدي دريس عمار:

٢٠١٥، ص. ٣٥).

وهناك من تخصّص في وصف إقليم مثل ا(البيروني) الذي عاش ما بين (٣٦٢-٤٤٠ هجرية) ووضع كتابا عن الهند بعنوان "تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية و أنماط ثقافية.واهتم أيضًا بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس.وأبرز البيروني في هذا الكتاب حقيقة أن الدين يؤدي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيكم والمعتقدات (فهيم حسين:١٩٨٦، ص. ٥٤).

كما كانت لرحلات "ابن بطوطة" وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم.

كما تعتبر مقدمة "ابن خلدون" الرئيسة عملا أصيلا في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا، ولا سيما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كلّ ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة.وقد شكلت موضوعات هذه المقدمة فيما بعد اهتماما رئيسيا في الدراسات الأنثروبولوجية (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. ٤٥).

واستناداً إلى ما تقدم يمكن القول: إن الفلاسفة والمفكرين العرب أسهموا بفاعلية- خلال العصور الوسطى- في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولاسيما التنوع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى (عيسى لى الشماس: ٢٠٠٤، ص. ٣٩).

٣.١ الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية

عصر النهضة كان حركة ثقافية أثرت بعمق على الحياة الفكرية الأوروبية في الفترة الحديثة المبكرة.بدأ في إيطاليا، وينتشر إلى بقية أوروبا من القرن السادس عشر،

وشُعر بنفوذها في الفلسفة والأدب والفن والموسيقى والسياسة والعلوم والدين، وغير ذلك من جوانب التساؤلات الفكرية.علماء عصر النهضة استخدموا الأسلوب الإنساني في الدراسة، وبحثوا عن الواقعية والمشاعر الإنسانية في الفن(زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. ٤٥).

تكمن أهمية عصر النهضة بالنسبة للأنثروبولوجيا في المادة الإثنوغرافية التي توافرت فيه والتي تعتبر عملا أوليا في المعرفة الأنثروبولوجية، فمن خلال تدوين سير الرحالة وما يشاهدونه ومن خلال وصف الأقاليم والشعوب غير الأروبية وقف العقل الأروبي على حقيقة الجنس البشري وعلى تنوعه وتنوع إنتاجه الحضاري(زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. 46).

ولعل أهم حدث غير مجرى التاريخ ومجرى الفكر كذلك وأثّرت في علم الأنثروبولوجيا، الرحلة التي قام بها " كريستوف كولومبوس" إلى القارة الأمريكية ما بين (١٤٩٢-١٥٠٢) حيث زخرت مذكراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة.

ومما قاله في وصف سكان جزر الكاريبيان في المحيط الأطلسي " إنّ أهل تلك الجزر كلهم عراة تماماً، الرجال منهم والنساء، كما ولدتهم أمّهاتهم.ومع ذلك فثمة بعض النساء اللواتي يغطينّ عورتهن بورق الشجر، أو قطعة من نسيج الألياف تصنع لهذا الغرض.ليست لديهم أسلحة ومواد من الحديد أو الصلب وهم لا يصلحون لاستخدامها على أيّة حال.ولا يرجع السبب في ذلك إلى ضعف أجسادهم، وإنّما إلى كونهم خجلون ومسالمون بشكل يثير الإعجاب (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. 46).

وكتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين: "انهم يتمتعون بحسن الخَلق والخُلُق، وقوة النية الجسدية.كما أنهم يشعرون بحرية التصرف فيما يمتلكون، إلى حدّ أنهم لا يتردّدون في إعطاء من يقصدهم أياً من ممتلكاتهم، علاوة على انهم يتقاسمون ما عندهم برضى وسرور(زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. ٤٧).

ويمكن القول إن الإستكشافات الجغرافية ساهمت جنبا إلى جنب مع الإتجاه

العلمي، علاوة على سيادة المذهب الإنساني، بل قد أثروا جميعهم ولا شك ولو بدرجات متفاوتة وفي مجالات متباينة في تشكيل منطلقات الفكر الاجتماعي النظري وفي إبراز اهتمامات جديدة في مجال دراسة الإنسان الأروبي وغيره.

كل هذا، شجع على الاهتمام بالإنسان وبدراسته وبتطوره وتطور نتاجه الثقافي واختلافه، فظاهرة التنوع الحضاري بين البشر الذي أبرزته وأكدته كتابات الرحالة، جعل الأوربيين يتجهون نحو فحص الذات والتأمل في أحوالهم، أجل فعلوا ذلك عن طريق المقارنة بين أنفسهم وبين الشعوب المكتشفة في ضوء ما ورد عنها من كتابات وأوصاف، لأنه قد ساد بصفة عامة نوع من التأملات التجريدية والرومانتيكية عن الحياة البدائية والطبيعية.

وربما ترجع أولى المحاولات لتدوين المادة الإثنروغرافية والتنظير بشأنها إلى الرحالة الإسباني "جوزيه أكوسا" في القرن السادس عشر حينما حاول ربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، فقد افترض مثلا أن الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلا من أسيا إلى أمريكا وبذلك فسر اختلاف حضارتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك، كذلك قدم "أكوسا" فرضا أخر حول تطور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معينة، وقفت فيها أوروبا بأعلى الدرج وأتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة بينما احتلت المكسيك مرتبة أدنى من ذلك، أما المجتمعات الأخرى فقد تم تصنيفها على درجات متباينة في أسفل الدرج وقد أقام "أكوسا" تصنيفاته على أساس معرفة الشعوب بالكتابة والقراءة (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. ٤٧).

ولم يعد الوصف كافيا بل بدأ المفكرون والباحثون في استخلاص أفكار نظرية من تلك المادة الاثنوغرافية التي يوفرها المستكشف أو الرحالة مثلا، ولم تعد الكتابات تيستمد مصداقيته من الخيال بل اصبحت تتجه نحو البحث الميداني وكانت أهم الخطوات في مجال البحث الميداني ضمن حقل الأنثروبولوجيا تلك التي قام بها الفرنسي (١٨٩٢) (ميشيل دي مونتاني) الذي أجرى مقابلات مع مجموعة من السكان الأصليين الذين كان بعض المكتشفين قد أحضرهم إلى أوروبا، واستحدم "مونتاني" هؤلاء الأسرى كاخباريين أي أنه جمع منهم معلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي

وخرج منذلك بمقولة أنه لفهم العالم لابد من دراسة التنوع الحضاري للبشر واستقصاء أسبابه.

لذلك يتسنى لأروبا أن تفهم ثقافات الشعوب الأخرى باعتباره أن لها منطلقاتها وأخلاقيتها الخاصة بها وبالتالي نجد هذا الفيلسوف الفرنسي قد طرح مقدما فكرة "النسبية الأخلاقية" على حد تعبير "ايدموند ليتش" وإلى جانب "مونتاني نشير إلى عالمين فرنسيين آخرين من مفكري القرن الثامن عشر واللذان يرى الأنثروبولوجيون في أعمالهما جذورا للفكر الأنثروبولوجي النظري وهما البارون "دي مونتسكيو"وجان جاك روسو" (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. ٤٨).

أما عن أصول نظرية الفكر الأنثروبولوجي الفكر الألماني في عصر التنوير، فقد تبلور الفكر الألماني حول فكرة التفوق العنصري متأثرا في ذلك بالنزعة القومية، التي برزت في منتصف القرن الثامن عشر.وقد حاول كل من "جورج ويلهم" "هيجل ويوهان فخته أن يجعلا من الشعب الروسي الجرماني الشعب الأمثل.

وجاءت كتابات "يوهان فون هيدردر" لتؤكد التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الفيزيقي الجسمي، وبالتالي "تتفاوت تلك السلالات في مدى التاثر بمظاهر المدنية، وفي تمثلها لمقومات الحضارة.

وعلى هذا الأساس يذهب "هيردر" إلى أن هناك سلالات بشرية خلقت للرقي، وأخرى قضي عليها بالتأخر والانحطاط.بل إن السلالات المختلفة في مضمار الحضارة يجب أن تظل كذلك لأنها ليست أهلا للرقي. وقد ترتب على نظرية السايدة العنصرية للجنس الجرماني نتائج سياسية من أهمها شرعية قهر الشعوب المتأخرة (فهيم حسين:١٩٨٦، ص. ٧٨).

٤.١ الأنثروبولوجيا في العصر الحديث

إن الاتجاه العلمي الذي نشط في القرن التاسع عشر وتبلور في مجالات متعددة، دفع العقل الإنساني إلى نبذ الفكر الفلسفي الميتافيزيقي الذي كان يتحفظ على قدرة العقل الإنساني في التوصل غلى الحقيقة المطلقة.

وكنتيجة لذلك شهدت بدايات القرن العشرين قصور الميتافيزيقا على حل

المشكلات الإنسانية الجديدة إزاء ما كان قد قدمه العلم في القرن السابق، وما أحرزه أيضا من تقدم في العقدين الأولين من القرن العشرين، وما نتج عنه قيم فكرية جديدة تدعو الى النظر الى العقل والمنطق المحسوس، والواقع الملموس كأدوات للمعرفة، كما تدعو إلى التفاؤل بمستقبل الإنسانية.

إلا أن أحداث الحرب العالمية الأولى ونتائجها السلبية على المجتمع الإنساني، بدّدت التفاؤل بمستقبل الإنسانية، وأحلت محله النظرة التشاؤمية.وهذا ما بدا في نظرة الفلاسفة إلى مشكلات الإنسان في القرن العشرين، إلى حدّ اعتقاد بعضهم أنّ المستقبل صعب ومظلم لاسيما مع ظهور النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا خلال سنوات ما بعد الحرب.وإن ذلك يقضي على الآمال التي كانت معقودة على تحرير الإنسان واحراز تقدم حضاري كبير من خلال الاستخدامات البناءة للاكتشافات العلمية في ميادين الفيزياء والطب (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص .٤٩).

هؤلاء الفلاسفة التشاؤميون رأو أن المخرج من أزمة الحياة الانسانية في ذلك العالم السيء يكون باحياء قيمه الدينية والتمسك بها.وبلغ هذا الاتجاه ذروته فيما عرف بالحركة (الوجودية) التي شاعت في فرنسا، وعلى رأسها " جان بول سارتر" الذي عاش ما بين (١٩٠٥-١٩٨٠) (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص. ٤٩).

إلى جانب الوجودية ظهر اتجاه وصف بالتفاؤل كان من أبرز رواده في أمريكا الفيلسوف التربوي" جون ديوي" الذي عاش ما بين (١٨٥٩-١٩٥٢).فقد أصدر كتابه الشهير إعادة البناء في الفلسفة وتبنى فيه موقفا صريحا مناهضا للفلسفة الميتافيزيقية.

ودعا فيه إلى ضرورة الاهتمام بالبحث عن القوى المعنوية التي تحرك مناشط الإنسان، لاعتقاد "ديوي" أن لدى هذا الإنسان الكثير من الإمكانات والقدرات التي يمكنه بواسطتها الخروج من أزمته الراهنة..كما تساعده في مشكلاته الحياتية المتزايدة، دون اللجوء إلى قوى خارجة عن نطاق الطبيعة (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص ٥٠).

لقد شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها، لتصبح كيانا أكاديميا ومهنة متخصصة عند كثير من العلماء والفلاسفة والباحثين، فقد تحول هذا العلم إلى منطلقات جديدة نتج عنها اتجاهات متعددة إزاء دراسة الإنسان

وحضارته، سواء ما كان منها نظريا أم منهجيا.

٢.طبيعة ومفهوم الأنثروبولوجيا وأهدافها

١.٢ طبيعة الأنثروبولوجيا

إن الشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية جميعها، تطلق على علم الأنثروبولوجيا: علم الإنسان وأعماله" بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنجليزية، على دراسة الخصائص الجسمية للإنسان، ويصل هذا الاختلاف إلى طبيعة علم الأنثروبولوجيا..فبينما يعني في أوروبا، الأنثروبولوجيا الفيزيقية، وينظر إلى علمي الآثار واللغويات كفرعين منفصلين، فإن الأمريكيين يستخدمون مصطلح (الأنثروبولوجيا أو الإثنوغرافيا) لوصف الإثنوغرافية الثقافية والتي يطلق عليها البريطانين (عيسى الشماس: ٢٠١٥، ص ص. ١٠-١١).

ففي انجلترا مثلا، يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا، على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية.أماّ في أمريكا، فيرى العلماء أن الانثروبولوجيا، هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، في حين أن علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح، دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية، أي العضوية .

فعلم الانثروبولوجيا يركز اهتمامه على كائن واحد هو الإنسان، يحاول فهم أنواع الظاهرات المختلفة التي تؤثر فيه..في حين تركز العلوم الأخرى اهتمامها على أنواع محددة من الظاهرات أنّى وجدت في الطبيعة. وكان علم الأنثروبولوجيا، ومازال، يحاول فهم كل ما يمكن فهمه أو معرفته عن طبيعة هذا المخلوق الغريب الذي يسير على قدمين، وكذلك فهم سلوكه الذي يفوق طبيعته الجسمية غرابة (عيسى الشماس: ٢٠١٥، ص. ١١).

ومع انّ علماء الأنثروبولوجيا، استطاعو استخدام بعض الأساليب التي طورتها العلوم الاجتماعية، فإنهم قلما اضطروا إلى انتظار تطور مثل هذه الأساليب... والواقع أن إسهامهم في تطور العلوم الاجتماعية، لا يقل شأنا عن إسهام هذه العلوم في تطور الأنثروبولوجيا.ولذلك ينقسم علم الأنثروبولوجيا إلى قسمين أساسين كبيرين: يبحث الأول في الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الطبيعية، في حين يبحث الثاني في أعمال الإنسان، ويعرف بالانثروبولوجيا الثقافية / الحضارية (رالف لينتون: ١٩٦٧، ص ص. ١٥-١٦).

واستنادا إلى هذه المنطلقات، فقد حددت الباحثة الأمريكية/ مارغريت ميد/ طبيعة علم الانثرووبولجيا وابعاده، بقولها: " إننا نصف الخصائص الإنسانية للجنس البشري (البيولوجية والثقافية) كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة،.

كما نهتم أيضا بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها، اضافة إلى البحث في الادراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته.وبصفة عامة، نسعى-نحن الانثروبولوجيين-لتفسير نتائج دراستنا والربط فيما بينها في اطار نظريات التطور، أو ضمن مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر.

وتأسيسا على ما تقدم، فإن الانثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان، ويدرس أوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحية الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بين الانسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى.

وفي الوقت ذاته، يدرس السلوك الإنساني ضمن الاطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام.فلا تهتم الانثروبولوجيا بالانسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس، وإنما تهتم بالإنيسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وتدرس الناس في أحداثهم وافعالهم الحياتية.

٢.٢ مفهوم الأنثروبولوجيا

١.٢.٢ تعريف الأنثروبولوجيا لغة:

الأنثروبولوجيا (Anthropology) هي مصطلح مركب من مقطعين باللغة اليونانية هما (أنثروبوس) (Anthropos)، وتعني "إنسان ولوجوس (Locos)، وتعني "علم" وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ "علم الإنسان" أي العلم الذي يدرس الإنسان (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص.٢٣).

٢.٢.٢ تعريف الأنثروبولوجيا إصطلاحا:

تعرف الأنثروبولوجيا، بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة...ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ١٩)، وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل...ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علما متطورا، يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله (أحمد أبو هلال: ١٩٧٤، ص. ٩).

وتعرف الأنثروبولوجيا أيضا: بأنها علم الأناسة العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق، ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة، ومن جهة أخرى أنه الوحيد من الأنواع الحيوانية كلها، الذي يصنع الثقافة ويبدعها، والمخلوق الذي يتميز عنها جميعا (سيدي دريس عمار: ٢٠١٥، ص. ١٩).

وتعرف الأنثروبولوجيا أيضا، بأنها العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق، ينتمي إلى عالم الحيواني من جهة، ومن جهة أخرى أنه الوحيد من الأنواع الحيوانية كلها، الذي يصنع الثقافة ويبدعها، والمخلوق الذي يتميز عنها جميعا (علي الجباوي: ١٩٩٧، ص. ٩).

كما تعرف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنها علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا (شاكر سليم:١٩٨١، ص. ٥٦).أي أن الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه، يحيا في مجتمع معين له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين.

فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية، وما إليها...وكذلك عن الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوعة التي تشمل: التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر والإبداع الأدبي و الفني، بل والعادات والتقاليد ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة، وإن كانت لا تزال تعطى عناية خاصة للمجتمعات التقليدية (أحمد أبو زيد: ٢٠٠١، ص. ٧).

وهذا يتوافق مع تعريف "تايلور" الذي يرى أنّ الأثروبولوجيا: هي الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية.وبهذا المعنى، تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم والتخصصات التي تتعلق بالإنسان.

٣.٢ أهداف دراسة الأنثروبولوجيا

استنادا إلى مفهوم الانثروبولوجيا وطبيعتها، فإن دراستها تحقق مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها في الأمور التالية (زينب حسن زيود: ٢٠١٥، ص ص٣١-٣٢):

- وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفا دقيقا، ذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة، وتسجيل كلّ ما يقوم به أفرادها من سلوكات في تعاملهم، في الحياة اليومية.
- ترقب السلوكات المقبلة للمجتمعات موضوع البحث، بغية تحديد العلاقات، التي يفترض إنشاؤها مع هذا المجتمع.
- حل النزاعات بين الشعوب.
- تبين مدى إمكانية تقبل مجتمع معين لثقافة معينة، من خلال معرفة كيفية عيشها وطرقه، وكيفية تفكيرها.

- تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوري والحضاري العام للإنسان:(بدائي، زراعي، صناعي، معرفي، تكنولوجي).
- تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان، وأساليب هذا التغير وعملياته بدقة علمية..وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وايجاد عناصر التغيير المختلفة.
- استنتاج المؤشرات والتوقعات لاتجاه التغيير المحتمل، في الظواهر الإنسانية/ الحضارية التي تتم دراستها، وبالتصور لامكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة.

ويبدو أن التباين العرقي بين بني البشر، هو الخاصة البيولوجية التي تستأثر باهتمام العالم الحديث، اكثر من سائر الخواص البيولوجية الأخرى عند الإنسان.ويبذل المصنفون العرقيون محاولات دائبة للتوصل إلى تصنيف عرقي مثالي.فكان من نتائج انشغال علماء الانثروبولوجيا الجسمية بمشكلة العرق.

فالأصناف العرقية البشرية ظلت، وإلى عهد قريب، تعتبر طيانات ثابتة نسبيا، وقادرة على الصمودأمام تاثيرات البيئة او قوى التغير الفطرية.

ويلاحظ أن التطرف في تمجيد فكرة العرق، أدى إلى فرض عدد محدود من التصنيفات الصارمة على بني البشر الذين يمتازون بتنوع لا حد له، وأدى بالتالي إلى زج الأفراد في هذه التصنيفات، بصورة تطمس صفاتهم الأصلية الخاصة (رالف لينتون: ١٩٦٧، ص. ٤٦) :

إن اهتمام الأنثروبولوجيا بدراسة المجتمعات الإنسانية كلها، وعلى المستويات الحضارية كافة، يعتبر منطلقا أساسيا في فلسفة علم الانثروبولوجيا وأهدافها.ولكن على الرغم من التوسع في مجال الدراسات الانثروبولوجياة، فما زالت الاهتمامات التقليدية للانثروبولوجيا، ولا سيما وصف الثافات وأسلوب حياة المجتمعات، ودراسة اللغات واللهجات المحلية وأثار ما قبل التاريخ، تؤكد ولا شك، تفرد الانثروبولوجيا عمّا عداها من العلوم الأخرى، ولا سيما علم الاجتماع.

ومن هنا كانت أهمية الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وايجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيدا عن التعصب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أصول علمية.

وإذا كان علم الأنثروبولوجيا، بدراساته المختلفة، قد استطاع أن ينجح في إثبات الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته، ومراحل تطوره الثقافي/ الحضاري، فإن أهم ما أثبته هو، أن الشعوب البشرية بأجناسها المتعددة، تتشابه إلى حد التطابق في طبيعتها الأساسية، ولا سيما في النواحي العضوية والحيوية.